ANCORA IMPARO

العصور

مارس وأبريل سنة ١٩٣٠ | اعرف نفسك بنفسك - فيثاغورس | مجلد ٦ العددان ٣١ - ٣٢

التطور
وأثره فى مستقبل الفكر الانسانى

نص الخطبة التى القاها صاحب هذه المجلة فى الاجتماع السنوى الاول للمجمع المصرى للثقافة العلمية برئاسة الدكتور على ابراهيم بك وكيل الجامعة المصرية وعميد كلية الطب فى يوم الثلاثاء ٢٥ مارس سنة ١٩٣٠ فى الساعة السادسة مساء بقاعة المحاضرات فى دار جمعية الحشرات بالقاهرة

١ — تمهيد - ٢ - اظهر الكفايات العقلية - ٣ - الاعتقاد والدين - ٤ - التأمل والفلسفة - ٥ - الاثبات او الاختبار والعلم - ٦ - اصطلاح العلم فى المجاز - ٧ - تفريق بين حالات عقلية - ٨ - الغرض الضرورى - ٩ - الغرض الامكانى - ١٠ - الاسلوب الحديث - ١١ - كيف نحيز هذا الاسلوب - ١٢ - نشوء المذهب الجديد - ١٣ - قواعد النشوء - ١٤ - تحليل التناحر على البقاء - ١٥ - التطبيق العملى - ١٦ - حالات تنتج مشكلات - ١٧ - التاريخ : مراميه وخصائصه - ١٨ علم الحياة - ١٩ - الحياة الانسانية - ٢٠ - النتيجة

(١) تمهيد

المعرفة اصطلاح يجمع بين كل الآثار التى أبدعها الفكر الانسانى . فالعلم معرفة ، والدين معرفة ، والفلسفة معرفة . والراجح أننا لانبالغ إذا قلنا إن الأدب والفن معرفة ، وان جميع هذه الآثار الفكرية ، باعتبارها نتاجاً للقوة العاقلة فى الانسان ؛ يجب أن يجمع بينها اصطلاح واحد ، هو المعرفة .

عندما بدأ الانسان يتطلع من فوق هذا السيار الصغير إلى ما حوله من

الاكوان ، وأراد أن ينفذ ببصيرته إلى الماهيات ، كما نفذ بصره إلى الماديات التى تحيط بعالمه الارضى ، تخالطت عليه المقاصد وسدت فى وجهه سبل البحث لقصور فى قوته العاقلة ، ونقص فى الوسائل . فى هذا الطور من البحث جمعت بين مختلف نظراته فى الوجود والحالات المحيطة بالوجود ، فكرة واحدة ، هى أن يعرف شيئاً مما يحيط به ، يرضى به نزعته إلى البحث ، ويشبع به نهمة التطلع فى نفسه . وفى هذا الطور ظهرت البدايات الأولى فى فروع المعرفة

عندما يعرف الهمجى لأول مرة أن العصا تحترق إذا أدنيت من النار ، وأن المسافة التى يقطعها من منبع النهر إلى مصبه ماشيا ، أطول من المسافة التى يقطعها بين شاطئيه سابحاً أو خائضاً ، فذلك أول عهد الانسان بالعلم .

وعندما يقف متطلعاً إلى السماء مستوحياً مساميرها الفضية وشمسها المتوهجة وسياراتها السابحة فى الفضاء ، ثم يسائل نفسه ماهذا الكون الفسيح ؟ وما الغاية من هذا النظام وكيف وجد ومن أوجده ؟ وما الازل ، وما الابد ، وما اللانهاية ؟ وهى فكرات ضرورية تنشأ مع التأمل ، فذلك أول عهد الانسان بالفلسفة .

أما إذا أراد أن يعرف كيف نشأ ، ومم نشأ وإلى أى شىء ينقلب بعد الموت ، وأخذ يكد ذهنه فى البحث وراء العالم غير المنظور ، عالم الغيب الذى تمثله له أشباح التخيل وقوة التصوير والوهم ، فذلك أول عهد الانسان بالدين .

هذه الكفايات خلقت مع العقل . غير أنها ظلت متخالطة متشابكة الحلقات أدواراً من السنين وأطواراً من عمر الانسان ، ولا تزال على تخالطها وتشابك حلقاتها قائمة فى ذهنية الكثيرين ممن لم يعنوا بدرس الفواصل التى تقيم حدوداً معينة بين هذه الكفايات . وهؤلاء على كبير خطرهم بمالهم من مراكز يسدون فراغها فى الحياة ؛ هم أكبر عقبة تقوم فى سبيل العلم والدين والفلسفة معاً . ذلك لان تخالط الآثار التى تنجم عن هذه الكفايات داع إلى الفوضى الفكرية ، وعامل من أكبر العوامل على قتل ملكة النقد وتنظيم المناقشات على الاساس لامثل . وهذا هو السبب الذى حملنى على أن اختار هذا الموضوع ليكون محل عنايتى وعناية الفئة الراغبة فى التفريق بين آثار الكفايات العقلية فى الخارج كما فرقت بينها الطبيعة فى تضاعيف الفطرة الانسانية .

(٢) أظهر الكفايات العقلية

الكفايات التى هى أظهر من غيرها أثراً فى حياة الانسان العقلية ثلاث :
أولا : كفاية الاعتقاد . ثانياً : كفاية التأمل . ثالثاً : كفاية الاثبات أو الاختبار . والراجح أن هذه الكفايات ، هى الكفايات الاساسية التى تقوم عليها المعرفة .

وعن هذه الكفايات الثلاث تنتج ثلاث صور من المعرفة . فعن كفاية الاعتقاد ينتج الدين : وعن كفاية التأمل تنتج الفلسفة : وعن كفاية الاثبات ينتج العلم . إذن فالدين والفلسفة والعلم ، ثلاثة اصطلاحات وضعت لتدل على ثلاث صور معينة من صور المعرفة الانسانية ، بحيث تفصل بينها فى الاعتبار العقلى حدود موضوعة ، ولا تجتمع إلا فى حيز واحد ، اذ ترجع برمتها الى أنها نتاج للعقل الانسانى .

وما نعنى بالعقل الانسانى إلا ذلك الشىء الغامض المبهم الذى فيه من الفطرة ومن الكسب مزيج ينتج تكويناً نسميه العقل . وما دام العقل احد الفروض الضرورية التى نسلم بوجودها تسليما ولو عجز العلم عن اثبات وجودها بأساليبه المعروفة ، اضطررنا الى القول بان تعريف العقل مستعص الى حد بعيد . ولكن يكفى أن نعرف من العقل أنه المصدر المكون من فطرة وكسب ، والذى تنتج عنه مجموعة المعرفة الانسانية .

(٣) الاعتقاد والدين

فى الحياة الانسانية ظاهرة من الجائز أن تكون قد سبقت بالوجود أول مدارج الاجتماع . تلك ظاهرة الاعتقاد . فكما أن الانسان اجتماعى بالطبع كما قيل ؛ كذلك هو كائن معتقد بالطبع . أى أنه ذا عقيـــدة في صحة شىء وبطلان آخر .

فالانسان اذن كائن معتقد بطبعه . وما كان للانسان أن يتبدل بمعتقده معتقداً آخر ، قبل أن تصح عنده مقدمات تسوق اليه ، وما كان له أن يثبت على معتقدين متناقضين أو متضادين تلقاء شىء بذاته ، فى زمان بذاته . ذلك لان للعقل الانسانى طبيعة لا تسع إلا اعتقاداً بعينه فى زمان بعينه .

من هنا نقول بأن الاعتقاد الفطري فى الانسان أصل الدين . كما أن التخيل منشؤه .

(٤) التأمل والفلسفة

اذا خرجنا من عالم الاعتقاد ولجنا عالم التأمل . ويحسن بنا أن نبين هنا أن الانسان كما هو معتقد بالطبع واجتماعى بالطبع ، كذلك هو متأمل بالطبع . ولن يكون تأمل بلا اعتقاد ، ولا فلسفة بلا تأمل .

يبدأ الانسان بالاعتقاد من غير أن يكون له اختيار فى أن يتأمل فى حقيقة مايعتقد به . فاذا داخل الانسان الشك فى حقيقة شيء مما يعتقد به ؛ بدأ يتأمل فى مايقوم عليه اعتقاده من المقدمات ، وفيما يمكن أن يصح لدى العقل من النتائج التى تؤدى اليها هذه المقدمات . فاذا صح لديه من طريق ما ، أن الحقائق التى اعتقد بها بدياً لاتلائم ماوصل به التأمل ، اخذ من ثم يتلمس طريقاً يوفق به بين معتقده واستنتاجه ، أى بين دينه وفلسفته . غير أنه غالب مايعز عليه أن يلغى الدين ، كما يعز عليه أن يلغى الفلسفة . فيحاول من ثم المزج بينهما ، مزجا أخرج لنا كل صور الدين العليا ، وكل مذاهب الفلسفة اللاهوتية والكونية ، التى قامت على مدى الازمان .

(٥) الاثبات أو الاختبار والعلم .

من الاعتقاد ومن التأمل ممتزجين تتولد حالة ثالثة ، هى من حيث الاصل فطرية في الانسان . على أن هذه الحالة لن تنشأ إلا مع الشك . فان الانسان اذا شك فى معتقده ، ثم شك فى استنتاجاته التأملية نزع ضرورة الى الاثبات بالاختبار . فاذا كملت فيه هذه النزعة الاثباتية ، نشأ مع كمالها الاسلوب العلمى فى أول مدارجه . فاذا تدرج فى طريق الاثبات ، تحيزت الطريقة العلمية الاثباتية على الاسلوب الحديث ، فأصبحت عبارة عن وحى الحواس ، تمييزاً لها عن وحى الاعتقاد ، ووحى التأمل .

(٦) اصطلاح « العلم » فى المجاز

علينا أن نبين بعد هذا أن اصطلاح العلم كثيراً ما يستعمل مجازياً ليدل على المعرفة . فان الغالب عند كل من يحاول أن يعرف شيئاً من حقائق الكون

أو قضايا المنطق الجدلية أو القياس أو أصول الدين أو التشريع أو النفس أو الأدب، أن نسمى هذا علماً . ولكل عذره فى أن يستعمل هذا الاصطلاح فى هذا المعنى المجازى الواسع . لأن كل ما وصل الينا من مذاهب الفلسفة أو مبادىء العلوم أو أصول الشرائع فى العالم القديم سمى « علماً » . ذلك لان تقسيم المعرفة على مقتضى كفايات العقل الانسانى ، وليد العصور الحديثة . ولهذا نجد أنه من أصعب الاشياء أن تناقش شخصاً لم تتحيز فى عقليته الفروق الموضوعة بين أقسام المعرفة على مقتضى الكفايات التي تستمد منها فى تكوين العقل . ذلك لأنه يعتقد أن الدين علم وأن الفلسفة علم وأن العلم علم . في حين أن الاصطلاح الجامع لهذه الصور الثلاث هو « المعرفة » فالدين معرفة والفلسفة معرفة والعلم معرفة . ومن مجموعها تتكون المعارف الانسانية . ولاجرم أننا من غير أن نميز بين الفروق الموضوعية القائمة بين هذه الصور ، نضرب في ليل من الشك حالك السواد . لهذا نحدد صور المعرفة بما يأتى

أولا — الدين - Religion - اعتقاد ذاتى .

ثانياً — الفلسفة - Philosophy - تأمل ؛ لا ذاتى صرف ، ولا موضوعى صرف .

ثالثاً — العلم - Science - اثبات استقرائى موضوعى .

وبين هذه الصور الثلاث يجمع اصطلاح واحد هو :

رابعا — « المعرفة » - Knowledge -

على هذا نجد أن العلم محدود تحديداً تاما بسيطا ، وكذلك الدين . إن العلم والدين باعتبارهما طرفى النقيض فى تكوين العقل ، تجمع بينهما الفلسفة مستمدة من كفاية التأمل . فاذا لم نراع هذه الحدود ، وإذا لم نراع الدقة فى استعمال هذه المصطلحات ، لم نستطع أن نحدد التفكير ، وبذلك تختلط علينا المقاصد فى العلم والفلسفة والدين . بل نعجز عن أن نحدد الاغراض التى ترمى الى ، ونبالغ فى تقييم الحاجات الفكرية والمادية ، مبالغة قد تصل إلى حد الافراط حينا ، أو التفريط حينا آخر . بل لا نخطىء إذا قلنا إن كل المناقشات التى تقوم حول المباحث العقلية ، تصبح خليطا من صور الفكر ،

لن تؤدى إلى نتيجة ولن نصل معها إلى غاية . وبذلك نفسح المجال للجدل المنطقي الذى ذاعت مع ذيوعه مذاهب السفسطة فى العصر اليونانى ؛ والكلام فى العصر الاسلامى .

(٧) تفريق بين حالات عقلية

لاجرم أن هذا البحث يظل ناقصا ، إذا لم نتناول بالكلام حالات يشتبك فيها العلم مع الفلسفة اشتباكا كبيراً . ولن يأتى هذا الاشتباك إلا من « الفرض » .

وليس من غرضنا أن نحدد « الفرض » فى المنطق أو ما هو « الفرض » فى الفلسفة القديمة . بل غرضنا أن نقسم الفرض قسمين : أولهما الفرض الضرورى : والثانى الفرض الامكانى . فالفرض الضروري هو ما يقبله العلم وإن عجز عن اثباته بأساليبه المعروفة . وأما الفرض الامكانى فلا مكان له إلا فى عالمى الفلسفة والدين .

(٨) الفرض الضروري

هو عبارة عن الحكم الذي يقسر العقل على التسليم به بمقتضى ما فى العقل من ألفة ، لا يمكن الاحتفاظ بها إلا من طريق التسليم بذلك الفرض . فى حين أن العلم Science يضطر الى التسليم مع العقل بصحة ذلك الفرض ، ولو عجز من اثباته بالطرق العلمية الموضوعة

(٩) الفرض الامكانى

هو الفرض الذى يستوى فيه حدا الوجود والعدم . أو الذى يحتمل أن يكون له حقيقة موجودة ، كما يحتمل أن لا يكون له أية حقيقة فى الخارج . ومعنى هذا أن العقل اذا سلم بالفرض الامكانى أم لم يسلم ، فانه يظل محتفظاً بألفته كاملة . فى حين أن العلم يرفض التسليم بالفروض الامكانية رفضاً باتاً تاماً مالم تثبت صحتها ثبوتاً قاطعاً بالاساليب العلمية المعروفة

(١٠) الاسلوب الحديث

فى هذا يتلخص اسلوب المعرفة الحديث ، و بهذا تعرف المذاهب الحديثة بين صور المعرفة . ولاقيام لثقافة اساسها الاسلوب العلمى من غير أن يتخير

هذا التصور فى عقول المثقفين ، ويهضم هضما كافياً ، ليكون اساس النقد من ناحية ، واساس البحث من ناحية اخرى

ولاجرم اننا اذا وعينا هذه المبادىء نصبح قادرين على تحديد المعقولات تحديداً يجعلها اكثر خضوعاً لاحكام العقل وكفاياته ، وخرجنا من ظلمات الجدل الى وضح الطريق العقلى الصرف ، نمتع بثمراته ، ونتخذه قاعدة نبنى عليها صرح العلم ، ونشيد من فوقها بناء الفلسفة والآداب

(١١) كيف تحيز هذا الاسلوب ؟

نكون مخطئين اذا تساءلنا كيف نشأ هذا الاسلوب ، ولكن نصيب إذا تساءلنا كيف تحيز. ذلك لان نشأته راجعة الى نشأة العقل ، وكثيرا ماسير هذا الاسلوب دفة الحياة الانسانية فى عصور لم يكن قد تحيز فيها بعد على غفلة من الانسان عن أمره ، وعلى جهل منه بحقيقة القوة المكتنزة فى تضاعيف فطرته. لهذا نتساءل كيف تحيز لا كيف نشأ ؟

عجيب من امور هذه الحياة أن يكون أرسطوطاليس (المعلم الاول كما يقولون) وصاحب اكبر عقل على ظهر خلال العصور القديمة والعصور الوسطى ، قد وضع اقسى اداة تقف امام العلم الذى كان من أول واضعيه واول المضحين فى سبيله بكل مناعم الحياة . فلقد وضع اوسطو طاليس بجانب علم الحياة والامبريولوجيا وبجانب بحثه فى الاخلاق وبجانب مبادئه فى التشريح ، مبادىء المنطق الاستنتاجى (Deduction) فان هذا المنطق الذى يتصرف فيه الفرض وتحتكم فيه المقدمات ، من غير أن يزنها اختبار ولا تؤيدها مشاهدة ، قد حال دون العلم الصحيح كما عرف فى العصور الحديثة . لأنه اصبح دعامة المعرفة الوحيدة واساس المقولات اللاهوتية التى ظلت محتكمة فى العقول طوال العصور الوسطى على اطلاق القول . فلما انقلبت آية الحياة فى حدود العصور الحديثة ، ونظر الانسان الى الحياة باعتبارها آية أرضية ، ودعته الحاجة الى تقييم نوعه بمقدار ماله فى الحياة من سلطة على عناصر الطبيعة التى تنوشه وتتصرف فيه بلا رحمة ولا شفقة ، وانقلبت فكرته فى الاساس الذى كانت تقوم عليه المعرفة

والغرض الذى ترمى اليه ؛ نشأت طريقة المنطق الاستقرائى (Induction) القائم على المشاهدة والاختبار ، وبالاحرى على الحواس . وكان أول من جرى على قواعده الفيلسوف « ديكارت » القائل بالشك ؛ وواضع مبادئه الفيلسوف « فرنسيس باكون » ومصلحه الفيلسوف الايقوسى المعروف « هيويل » (Whewell) الذي يقرر فى أول كتابة « المنطق الاستقرائى » كأول قاعدة جزيئية من قواعده

« الانسان معلل الطبيعة ، والعلم هو التعليل الصحيح »

وليس لنا فى هذا الموطن أن نستطرد الى سرد التدرجات الدقيقه التى تناوبت على هذا المنطق حتى تحيز على صورته الاخيرة . ولكن حسبنا أن نقول إن اساسه الاختبار واسلوبه التاريخ . الاختبار الحسى من ناحية . وتعليق درس العلوم على درس تاريخها من جهة اخرى . وانى لاقول آسفاً ، اننا عدمنا نعمة هذا المنطق حتى الآن فى معاهدنا العلمية

وبمقدار ما بين المنطقين من الاختلاف ، نقيس الفوارق الكائنه بين الحضارة القديمة والحديثة . وبالاحرى بين حضارة الاعتقاد وبين حضارة الاثبات ، بين حضارة النظريات وحضارة العمليات ، بين حضارة الرياضة الفكرية ، وحضارة المنفعة . وإن شئت فقل بين حضارة الفلسفة وبين حضارة الانتاج الصناعى الحديث .

(١٢) نشوء المذهب الجديد

على هذا المنطق ، وكنتيجة من نتائجه ، قام أكبر مذهب فلسفي علمى في العصر الحديث ، وهو بلامراء مذهب النشوء والارتقاء الذى وضعه « داروين » معلم القرن التاسع عشر غير منازع ؛ وهو المذهب الذى نريد أن نتخذه قاعدة للتدليل على الاسلوب الذى سوف يؤثر به النشوء والتطور فى مستقبل الفكر الانسانى .

خيل الى الكثيرين أن العلامة داروين قد اقتصر عمله فى كتابه الخالد

« أصل الانواع » على أن يثبت بالبرهان العلمى الحديث نظرية فلسفية قديمة . ولقد أثبت الاستاذ « هنرى فيرفيلد أوزبون » الامريكى وغيره من الكتاب ، أن نظرية التطور قديمة نشأت مع بدايات الفلسفة اليونانية ، وظلت متنقلة فى العقول خلال كل الازمان ، حتي اسلمت بها الاقدار الى القرن الثامن عشر فولدت جديدة بابحاث كاسبار فردريك وولف سنة ١٧٥٩ ، ولامارك بكتابه فلسفة الحيوان سنة ١٨٠٩ وداروين بكتابه الخالد « أصل الانواع » سنة ١٧٥٩ . ذلك قرن كامل من الزمان .

ويعتقد الكثيرون فى العصر الحاضر أن نظرية النشوء الداروينيه تقتصر على هذا وحده ، وأنه اذا غولى فى الامر وتوسع العلماء فى تطبيقها ، أمكن ذلك فى أسلوب النشوء الكونى والعضوى فى الماضى والمستقبل ، من غير أن يكون لها أثر عملى فى خلق تصورات جديدة يمكن الوصول بها الى قواعد تجريبية تطابق المنطق العلمى الاستقرائى ، بحيث يستطاع من ناحيتها توجيه النوع الانسانى فى الحياة ، فردياً واجتماعياً ، توجيها أرشد وأكثر خيراً . والحقيقة أن عظمة « داروين » تمتد بمذهبه الجديد الى مستقبل النوع الانسانى على كرة الارض ، بطريقة علمية استقرائية . بل إن مذهب النشوء الانتخابى - وهو فى الواقع مذهب داروين بأحكام القول - ليس بمذهب تاملى نظري فهو مذهب عملى تطبيقي . وعندى أن لمذهب النشوء طرفين : طرف نظرى أدرك القدماء وأهل العصور الوسطى شيئاً منه ، واستطاعوا أن يعللوا به نشوء الكون والتغيرات التى وقعوا عليها فى سطح الكرة الارضية ، وهى فكرة استمدوها من نشوء أفراد الحيوان والنبات . وطرف عملى هو الذى وضع داروين قواعده لاول مرة فى تاريخ العلم . وعلى هذا تقوم عظمة داروين .

نستمد الدليل على هذا من حقائق التاريخ العلمى . فان التصور القديم فى النشوء لم يستطع أن يمحو من عالم الفكر الانسانى بضعة أخطاء نفسية أهمها أن الانسان محور الكون ، وأن الكون لم يخلق إلا من أجله . ولقد كان هذا الخطأ النفسى وحده ، بله أخطاء أخرى تشابهه ولا تنزل عنه أثراً فى دمغ العقل

بطابع معين ، سبباً حال دون نشوء الافكار الحرة زماناً طويلا . ومن هنا يظهر لنا جلياً أن تصور النشوء على وضع أثر أثره المحتوم فى تكوين الفكرة الحديثة ، وعلى منحى فتح أمام العقل الانسانى أبوابا جديدة لم تفتح من قبل، يرجع فضله الاعظم لمعلم القرن التاسع عشر .

(١٣) قواعد النشوء

ومهما يكن من أمر الذين يحاولون أن يثبتوا قدم مذهب النشوء ، فان القول بان هذا المذهب من ثمرات العقل الحديث ليس بمطابق للحقيقة على اطلاق القول . أما الحقيقة فهى أن « داروين » قد استطاع أن يستحدث من الفكرة القديمة تصوراً جديدا ، أقامه على ثلاث قواعد استقرأها من مشاهد الطبيعة . أما هذه القواعد فهى :

أولا — التناحر على البقاء

ثانياً — الانتخاب الطبيعى

ثالثا — بقاء الاصلح

ولقد أحدث استكشاف هذه القواعد المترابطة ثورة انقلابية فى سير الفكر الانسانى . لهذا يحق لنا شرحها واظهار علاقتها بالانسان وحالاته الحيوية . وأثرها في تطور الفكر .

* * *

(١٤) تحليل التناحر على البقاء

لقد أوحى الى داروين بفكرة التناحر على البقاء من بحث كتبه « توماس روبرت ملتوس » فى الاحصاء وازدياد عدد الاحياء بنسبة رياضية . فقد استبان أن الاحياء اذا لم ينزل بها الفناء فى فترات من الزمان ، ملأ وجه الارض نسل نوع واحد منها فى عهد قصير . ولقد ضرب داروين على ذلك أمثالا كثيرة ليس هنا محل ذكرها . أما ما يهمنا الكلام فيه ، فالوقوف على تفاصيل الفكرة فى نشوء الاحياء ، كما وصفها « داروين » ومن ثم نطبقها على عالم

الاجتماع الانسانى. و لما كان تفصيل الفكرة تفصيلا وافياً، امراً بعيداً عن الامكان فى مثل هذا الموقف ، و مفروض اننا جميعا نلم بطرف موجز منها ، لهذا تابع البحث فى تطبيقها على الاجتماع الانسانى مع مراعاة الايجاز بقدر المستطاع

جاء فى الفصل الثالث من كتاب اصل الانواع ؛ وهو الفصل الذى خص به داروين التناحر على البقاء ، ثلاث جمل يستخلصها المكب على درس هذا المذهب بسهولة ، إذا هو اراد ان يستقري ما وراء السطور . قال .

أولا ـ إذا فرض وجود حيوانين من الفصيلة الكلبية فى زمن اشتد قحطه ، فيمكن القول بانهما يتناحران من منهما يحصل على الغذاء و يفوز بالبقاء. فى حين أن نباتاً فى صحراء يمكن أن يقال بانه يجالد الجفاف فى سبيل الحياة . أو بعبارة أصح ، أنه يعتمد على الرطوبة في سبيل الفوز بالبقاء

ثانيا ـــ إن المناخ يلعب الدور الاعظم في تحديد متوسط العدد الذى يبقى من أفراد الانواع . والظاهر أن الفصول الدورية التى يفرط فيها البرد أو الجفاف هى أشد الصدمات العنصرية التى تتعرض لها الاحياء .

ثالثا ـــ اذا بلغنا الاقطار القطبية أو الصحارى القاحلة أو قمم الجبال الجليدية ، فان التناحر على البقاء يكون برمته ضد العناصر .

رابعا ـــ كثيرا مايحدث أن ذهاب أفراد الانواع فريسة غيرها لا احتياجها الى الطعام ؛ هو الذى يحدد متوسط عدد أفرادها .

من هذه القواعد البسيطة نستطيع أن نستنتج أن التناحر على البقاء كما تجيز فى عقل داروين ؛ انما هو على أربع صور مترابطة ، ولكنها متمايزة .

أولا ـ الصورة الاولى : هى التناحر فى سبيل رد الفعل الطبيعى أو مقاومة الاثر العنصرى ، وقد نستطيع ان نسميه التناحر العكسى ، بان يحتمل الكائن الحى الحرارة أو البرد أو القواسر الاخرى . بان يقدر ان يردد عدداً أزيد من الانفاس ، أو يخطو خطوة أزيد ، أو يستقوى على التعب الجسمى وأثر اليأس النفسى ، أو يستطيع أن يستكشف البيئة و يعرف مركباتها ، أي يحللها ، لعله يعرف كيف ينتفع بما يبقى على حياته دقيقة أخرى

ثانياً ـــ الصورة الثانية : وهى التناحر فى سبيل الحصول على الطعام ،

وقد نستطيع أن نسميه التناحر الايجابى ، بان ينتفع الكائن الحى باشياء يصلح بها ما يفقده من القوة الحيوية فى مقاومة الاثر العنصرى أو رد الفعل الطبيعى

ثالثاً — الصورة الثالثة : وهى التناحر فى سبيل المكافأة ، وقد نستطيع أن نسميه التناحر التكافؤى ؛ بان يعمل كل كائن على حيازة أكبر قسط من المكافأة بين تكوينه وتركيبه وبين طبيعة البيئة الخارجية المحيطة به .

رابعاً — الصورة الرابعة : هى التناحر فى سبيل المعادلة الضمامية ، وقد نستطيع أن نسميه التناحر التعديلى ، بان تعدل افراد الاحياء حالاتها بما تتطلب حاجة الجماعة

* * *

من هذا التحليل نستطيع أن نجيب على عدة من المشكلات الكبرى التى امضت العقل الانسانى قروناً طوالا . فاذا تساءلت مثلا ما هى العلاقة بين ظاهرات الدين والجمال والعقل والاقتصاد والاخلاق والاجتماع بعضها ازاء بعض وازاء الحياة فى مظهرها الكلى ؟ أو اذا تساءلت : ما هى نقطة الانفصال فى النشوء الاجتماعى عن كل ما سبقها من مظاهر النشوء التى أدت اليها ، أو ماهو الحد الفاصل بين مظهر الطبيعة الاجتماعى ومظهريها العضوى والنفسى مثلا ، فاننا لاشك نقع فى تحليل التصور العلمى فى حقيقية التناحر على البقاء ، على اجوبة مرضية لهذه المشكلات

فان الصورة الاولى من صور التناحر على البقاء ، أى صورة التناحر فى سبيل رد الفعل الطبيعى أو التناحر العكسى كما سميناه ، انما تنقلب مع النشوء حاسة دينية رئيسة فى النفوس أوحس بالجمال عميق الاثر فيها . كما أن التناحر فى سبيل الحصول على الطعام ، انما ينشأ عنه الحياة الاقتصادية . والتناحر فى سبيل المكافأة انما يحدث الاخلاق العليا كضبط النفس والتوجيه الذاتى وطبع الوجدان بطابع معين . فى حين أن التناحر فى سبيل التعادل الضمامى ضرورى للاحتفاظ بالصفات الاجتماعية التى يتركب بها مجموع من السلالات العليا فى الحياة العضوية

اما الانتخاب الطبيعى وبقاء الاصلح ، فتابعان لدي الحقيقة لتصور التناحر على البقاء . وشرحهما يحتاج الى كثير من الوقت و الفراغ . و يكفي أن نقول فيهما إن تصورهما فى عقل دار و ين ادى الى فكرة كبرى فى الانتخاب الزوجى بناها على حقيقة وجود الصفات الزوجية الثانوية ؛ و هو مبحث فى التاريخ الطبيعى استمدت منه فكرات اجتماعية لها الاثر الاول اليوم فى توجيه الاصلاح الاجتماعى وجهة جديدة .

(١٥) التطبيق العملى

لم نقصد بهذا الشرح أن نستطرد الى الكلام فى حقيقة المذهب الدارو يني الحديث . بل قصدنا الى التمهيد دون التقرير . قصدنا بهذا أن ندرك التصو ر الجديد فى العلم النشوئى ، وعلاقته بالحياة الانسانية . ولو أردنا أن نشر ح كل وجوه العلاقات القائمة بين تصور النشوء والحياة ، لما وسعنا مجلد ضخم نلم فيه بأطراف موجزة من هذا الموضو ع المترامى الاطراف . لهذا نكتفى بأن نظهر علاقة الابحاث النشوئية بفرع واحد من فروع المعرفة الانسانية ، ليكون مثالا نحتذيه فى بقية الفرو ع اذا أردنا . ولندرك على وجه التقريب أثر الفكرة النشوئية فى العلم الانسانى .

قد نحاول أن يكون موضو ع بحثنا اليوم فى علاقة الدين والآداب بالنشوء . غير ان هذا البحث ، على انه على صرف ، قد يقيم فى الاذهان شكا فى حقيقة ما نقصد اليه من كلمتنا هذه . و قد نقصر بحثنا على علاقة الفلسفة بالنشوء . غير ان احتياجنا الى الغوص و راء مشكلات العقل فى مثل هذا البحث ، قد تنبو عنه أسماع الكثيرين ممن نحاول أن نجعل خطابنا معهم قاصر على أو ليات عامة نظهر من ناحيتها أثر التطور فى مستقبل الفكر الانسانى . وقد نبحث النشوء من حيث علاقته بالخلايا الحية و انتقال الصفات الوراثية ، أو نشوء الانسان أو أصل الجماعات البشر ية أو الانقلاب الجنينى أو الاستيطان أو الاجتماع أو الاخلاق أو علم النفس أو غير ذلك من فرو ع المعرفة . غير ان احتياجى فى مثل هذه الابحاث الى الشروح العميقة بعض

الشيء ، جائز أن يعترض عليه من بعض الوجوه ، لهذا اخترت أن يكون الكلام فيما كان من أثر التصور الحديث فى النشوء على بحث « التاريخ » . وغالب ظنى انه من المتيسر فى مثل هذا البحث أن نعرف كيف يؤثر تصور النشوء فى تكوين العلوم .

(١٦) حالات تنتج مشكلات

فى سنة ١٩٢٢ على ما أذكر نشر الاستاذ المغفور له الدكتور يعقوب صروف مقالا فى التاريخ لأحد الكتاب ، فمهد له بكلمات خيل الى منها انه يعتقد ان التاريخ علم ، على ما يعرف من العلم فى المباحث الحديثة . فكتبت رداً عليه نشره فى المقتطف ، حاولت أن أثبت فيه ان التاريخ مزيج من الادب والفن. ولا أزال مقتنعا بصحة رأيى هذا .

غير انى مع هذا كنت شديد الاقتناع بأن من الفنون الادبية أو الابحاث النظرية ؛ مايكون فى طور انتقال يتخطاه الى حيث يصبح علما صحيحا . والحقيقة أن التاريخ من بين المعارف الانسانية يجتاز هذا الطور فى العصر الحاضر . فهو على ما أرى علم فى طور التكوين . وهذا ما نحاول اثباته فى هذه الكلمة معتمدين ذلك على المباحث الحديثة والتصور النشوئى الذي دمغ الفكر بطابعه الثابت فى هذا الزمان .

٥٥٥

وقعت فى تاريخ الدنيا حوادث اذا تأملت منها ؛ لاحت كانها خيال لا حقيقة . حدث أن وجه الافراد والجماعات همهم وبذلوا جهدهم فى سبيل نشر دين جديد ، فكانت النتيجة أن تكونت حكومة من طراز حديث ؛ أو تألفت جماعة حربية لم يكن لها وجود من قبل . وقد نجد أن الطبقات الحاكمة أو الجماهير المحكومه ، قدعمدت الى رفع المستوى العام من أمهم بالعمل على تنمية الموارد الاقتصادية أو تدعيم السلطة السياسية ، فكانت النتيجة قيام دين جديد، مما يقتضى قيام الدين من التقاليد والمذاهب والمبادئ ؛ ليحتل المكانة التى كانت

تشغلها الميثولوجيا القديمة، وليجدد من حياة الأمم الروحية. وكذلك تقع في التاريخ على منازعات وحروب قامت بين حكومات ، ودارت رحاها حول أشياء معينة ، ولكنها انتهت بابرام معاهدات أو عقود صلح ، فضت مشكلات تختلف اختلافا كلياً عن طبيعة الاشياء التي قامت من أجلها الحرب واحتدمت نار الجلاد . وعلى هذه القاعدة تجد أن مشكلة العرش في أمة خلا عرشها من ملك يحكمها ؛ كانت في التاريخ مثاراً لمنازعات وحروب تناولت أكثر أمم المدنية ، فأدت في النهاية إلى تعديل التخوم الجغرافية التي تحدد بقاع كل أمة من الامم . وقد تشب خلافات، بين أميرين ويكون سببها الوراثة العائلية أو المماحكات السياسية . ولكن الخاتمة تكون من حظ أمم مهملة غير معروفة ولا مذكورة بلسان ، تظل سائرة نحو الظفر العالمي ، كالحيوانات الحافرة : تخترق تحت الثرى أنفاقا ، حتى تظهر فجاءة ، فتحتل المكانة الأولى من نظام الامم السياسي .

وقد يجد الفلاسفة وأصحاب الجدليات النظرية حيناً في الترويج لفكرة حديثة ، أو وضع قواعد جديدة يقوم من فوقها بناء الفن والعلوم أو تقدم المعرفة عامة أو تدعيم أسس التربية ، وتكون الأمم منصرفة عنهم الى الحصول على مزايا الاستقلال السياسي أو الديمقراطية والحكم النيابي . ويقع في حين آخر أن ينصرف السياسيون الى الدعوة لادخال الاصلاحات العامة في نظام الهيئات التشريعية والمجالس الشعبية ؛ فينصرف فريق من أكبر الرجال مقدرة الى الكلام في اختيار أحسن الاساليب الانتخابية والتمثيل النيابي ، ودرس أقوم الصلات التي يجب أن تقوم عليها علاقة الحاكم بالمحكوم ، ولكن يقوم في الوقت ذاته شعور جديد يتناول أكبر مجموع من الامة ، هو في ذاته عنوان على حياة جديدة تبعثها في الناس نزعة عقلية الى البحث والى الشك فيما يقوم حفافيهم من التقاليد ، والى تذوق الفكرة الحرة ، وحرية المناقشة والنقد ، فتكون النتيجة خلق صورة حديثة في الأدب ، أو منحى جديد من مناحي العلم .

والواقع أنك لا تستطيع أن تحتنك بدايات كل حركة من الحركات النفسية ، اذا ما انتهت الى غايتها . فقد ظهرت حركات كانت فى بدايتها أمل غامض فى تحسين حالة الانتاج الصناعى أو النجاح التجاري ، غير أنها انتهت بتعديل جديد فى القوى الاجتماعية أدى الى تهذيبات شتى في شكل الحكم ومدى السلطة الحكومية . وكذلك نجد الامر عند حدوث التغيير الدينى . فان وضع أساس ديني يكسب أمة من الامم ألفة روحية منظمة ، يرجع عادة الى ظهور شخص معين يلعب هذا الدور على مسرح الحياة . ولكنك تجد بجانب هذا أن تحطيم النظم الصناعية والانتاجية ؛ وتقويض دعائم الفن التجارى ومهارة الأخذ والعطاء ، كان لقيام هذه الالفة الروحية نتاجاً . وكذلك الحال فى رجال الوطنية والحماس القومى . فقد ترى بعضهم بعد أن حصر مطامعه فى الحصول على الحكم النيابى ، ومدسلطةالمحكومينعلى حساب تحديد سلطة الفرد الحاكم ، تقاذفتهم نزوات جديدة تملكتهم فجأة وساقتهم الى غايات لم تكن فى حسبانهم ، فكانت النتيجة اعلان الاستقلال التام والانفصال الكامل عن أمة أخرى ، أو عن مجموع من الامم . وقد ينزل فرد حاكم بأمةأقصى ما يمكن تصوره من المضار ويحملهاأشد ماتنال الكوارث من الامم ، وتظل الامة ساكنة هادئة كأن لم يكن شيء مما كان ، فى حين تجد أن حكومة أخرى مصلحة ، بقدر الاصلاح ما يكون ممكناً فى حكومات استبدادية ؛ قد ثار عليها الشعب ثورة دموية واستبدل ملكيتها الاستبدادية بحكومة ملكية مقيدة . وثمة حكومتان تتشاحنان على أيهما يفوز بالغلبة من طريق القوة ، وتظلان متشاحنتين حتى تظهر على مسرح الحياة ثالثة مستقلة عنهما نظاما ودما ، فترمى بنفسها فى غمرات الدردود السياسى ، فتفض النزاع ، ولكن بتقسيم جديد في مدى السلطان السياسى والحدود الجغرافية .

إن الناظرين فى أمثال هذه المفارقات الغريبة ، التى ليست عندى أكثر من ظاهرات طبيعية عجزنا عن معرفة أسبابها الصحيحة ، فنسبناها الى المصادفة كما هى العادة ، قلما يؤمنون بان هنالك نواميس أوسننا ثابتة تحتكم فى تسود

الامم وانحلالها . فاذا كانت طبيعة الاشياء الانسانية قد تبلغ من الغرابه هذا المبلغ ، واذا كانت بلاقانون أوسنن تحكمها ، أو روابط ضرورية تربطها ، واذا كان نشوء الامم وسقوطها ، أوظهور الاديان وفناء الصناعات ، أوفقدان الحريات أوقيام النظامات النيابية ، عامتها نتيجة حوادث اتفاقية يتعذر التنبؤ بها أو اكتناه أسبابها ، فاى مجال يترك فى الحياة الانسانية للغايات أو المثل العليا ، ومم تتكون مادة الوحى التى يوحى بها الى قلب الانسان ليجلد و يستقوى ويتغلب فى معركة التناحر على الحياة ؟ وما هو الطريق الذى تستطيع به أمة غذت المدنية وأربت بجهدها الثقافة ، أن تحتفظ بكرامتها ومركزها الذي نالته بدماء أبنائها وعصارة أفكار نابغيها ؟ وماهى الوسائل التى تتذرع بها أمة فى طور الطفولة والغرارة لتبلغ مبالغ الامم العظمى فى مدارج الرقى البشرى ؟ وهل هنالك أية فائدة فى جهد المهيجين ، دعاة الفتنة ، أوتضحية الشهداء ، أوجمود المقلدين ؟ وماهى القيمة الحقيقية للجهد المتواصل ، أوضروب الاحتمال التى يلتذ بها ناشرو الاديان ، أوالمصلحون الاجتماعيون ، أو رجال الوطنية ، أومحبو الانسانية ؟

(١٧) التاريخ : مراميه وخصائصه

يتوقع الناس أن يتلقوا أجوبة من المؤرخ فيما لوتسألوا عن آمال النوع الانسانى ومستقبله . غير أن عالم المعرفة قد خضع فى العهد الاخير من تطور الفكر لمبدإ « الاختصاص » أو « تقسيم العمل على حسب الكفايات » ولقد اتجه الفكر نحو تجزيء المعرفة الى أجزاء أو أقسام ، واخضاع كل قسم منها الى طريقة من البحث مستقلة عن الاخرى ، فكانت النتيجة أن تخصصت العلوم وأخذت مراميها تضيق وهنا على وهن وحالا بعد حال .

ولم تنج الدراسات التاريخية من هذا الاثر . أثر الانفراد والاختصاص ، فاخذت ترتد الى حيث تحدها الحقائق والظاهرات التى تتكون من مجموعها « الحالة الحاضرة » لجماعة من الجماعات . ولقد اضطر المشتغلون بالتاريخ أن يحصروا أجل همهم ، ويحددوا مسؤليتهم ، بدراسة المشكلات السياسية التي

تتعرض لها الجماعة ، أى الحالات الادارية والدبلوماسية ـ أي العلاقات الدولية ـ والحروب والمعاهدات، والتوسع الاستعمارى من ناحية أو انتقاص أطراف المدى الجغرافى من ناحية أخرى ؛ وشبوب روح الوطنية أو خمودها، أو الوحدة السياسية أو الانحلال القومى ؛ الى غير ذلك من الحالات . فالمؤرخون لم يعنوا إلا بالنظر فى الظواهر السياسية التي تنتجها الحياة الانسانية ، حتى لقد قصروا على هذه الحالات جل انتباههم وكسروا عليها معظم جهدهم وتفكيرهم . وهم فوق ذلك يتجاهلون أو بالاحرى ينصرفون عن درس المؤثرات التى تفعل فعلها الثابت، وتؤدى الى نتائجها المحتومة فى حياة الانسان عائلياً واجتماعيا وصناعيا ودينياً وعقليا ، الى غير ذلك من المؤثرات المتباينة التى تؤثر فى الحياة الانسانية على وجه عام و في النظامات التى تدمغ طابعها الثابت فى جبين المتجمعات السياسية . ذلك لانهم يعتقدون أن درس هذه المؤثرات من واجب غيرهم من الباحثين من رجال الاجتماع والاقتصاد والتربية والنفسيين .

ولاشبهة مطلقاً فى أن مبدأ التخصيص فى تكوين العلوم قد أثر اثره فى تكوين علوم جديدة نماها ، ونشأها بان حدد مداها و خصص مراميها واغراضها . فأدى ذلك الى بلوغ الغايات العملية التى تنتظر من الاشتغال بالعلوم . غير أن هذا التخصيص وتلك التحديدات ، كان لها من المناقص بقدر ما كان لها من الفوائد . فلقد احدث هذا التخصيص اثراً سيئاً فى أن تفقد العلوم ما بينها من روابط الالفة والاتساق والتركيب المزجى ، فحال ذلك ؛ أو على الأقل تعذر معه ، استكشاف مبادىء عامة أو سنن كونية ، يمكن تطبيقها تعميما على حالات الحياة الانسانية ، منتزعة من حقائق الطبيعة وظاهراتها

لقد استطاع التاريخ أن يزود فرعاً حديثاً من فروع المعرفة بجملة من حقائقه المستجمعة، فكان منه «علم السياسة» (Political Science) وبذلك استطاع أن يمد المعرفه الانسانية بجديد من العناصر أغناها وأوسع من أفقها . غير ان هـــذا « التخصيص » ، قد أبعد الباحثين من ناحية أخرى ، عن درس آمال الانسان وأمانيه ، وتقدم الحضارات واضمحلالها ، وما يمكن أن تربح الانسانية من حركاتها السياسية ، وما يمكن أن تخسر .

وليس الانسان « بحيوان سياسى » فى مجموع غرائزه . ولهذا نجد أن الحكومة لاتستطيع ، أو هى تعجز . . أن تكون بمفردها مثالا يحتذى أو نبعاً يزود الجماهير بما يتطلعون اليه من السعادة وما يريدون دفعه من الشقاء . ولن يكون قدر من « المعرفة » كافياً لان يزودنا بما ندرأ به هذه الشناعات الانسانية ؛ إلا اذا قام على درس كل الشهوات والميول والنظامات وأوجه الحركة والسكون التى تنطوي عليها صدور الناس . وعلى هذا فلابد من أن يظل التاريخ علما ناقصاً ، وأن يبقى عاجزا عن أن يحدس شيئا من مستقبل الجماعات ومنقلباتها الشتيتة ، أو أن يصور ماذا يكون من السبل التى تتمشى فيها خطا الارتقاء الملائمة لحالة ما من الحالات الاجتماعية ، مادام بعيدا عن العناية بدرس الحياة الانسانية فى مجموعها ، وظاهراتها العديدة المتكاثرة . لهذا يجب على المؤرخ ، ليصبح التاريخ علماً أن يلجأ الى ماتوحى اليه به سنن الحياة وظاهرات الحياة العضوية . عليه أن يلجأ الى علم الحياة « البيولوجيا » Biology ـ فان هذا العلم لدى الواقع أساس علم الاجتماع الحقيقى ، كما انه اساس التاريخ ، ان شاء المؤرخون ان يصبح التاريخ علما . فان التاريخ اذا اقام على علم الحياة ، فانه يصبح قادرا على أن يكون مبادىء تامة جلية محدودة ، ينتزعها من خطا التقدم الانسانى ، ومن تكوين الجماعات ، ومن تطور الحضارات .

(١٨) علم الحياة

إن نشوء العضويات على وجه عام انما يرجع الى بضعة أوجه من النشاط الحيوى و بضعة مواد أساسية ، وكلها ضرورى لنشوء الحياة ، بما فيها من الظواهر العديدة . أما البيئة أو المحيط الطبيعى ، فكلاهما ضرورى لنزوع العضويات بهذه العوامل التى ليست الحياة إلا نتيجة من نتائجها . ولا يقتصر هذا المحيط الطبيعى على إنه المغذى الاول للعضويات وحارسها الذى لاتغفل له عين ، بل أنه مجال نشاطها ، كما أنه محل عيشها الذى تتكاثر فيه بالتناسل وانتاج المثل . وعلى هذا نرى أن الفعل من ناحية ، ورد هذا الفعل من الناحية الاخرى ، بين العضويات و بين البيئة ، هو الذي ينظم كل حالات الحياة فى مدى الزمان ، او

«التاريخ» الذي تظل الافراد العضوية فيه شاغلة جزءاً من المحيط الطبيعي .

على أننا نجد أن القوى والمواد التي يتكون منها المحيط الطبيعي كالضوء والحرارة والهواء والماء والارض والمواد الغذائية الى غير ذلك، ليست في مستوى واحد من الضرورة لبقاء كل كائن عضوي ونشوئه ، بل الحقيقة أن بعضها قد يكون ذا خطر مباشر عليها أو بالغ أقصى الضرر بحاجاتها الحيوية . وفضلا عن هذا فان بين بعض العضويات وبعض علاقات قد تكون ودية ، وقد تكون عدائية . بيد أن تفاعل قوى الطبيعة وما يترتب على تفاعلها من النتائج ، مفيدة أو ضارة ، موافقة لمطالب الحياة أو غير موافقة ، هي التي تحتكم في نشوء كل فرد من أفراد العضويات ونمائه على مقتضى السنن المعروفة في علم الحياة . وعلى هذا تجد أن صورة كل كائن عضوي وخصائصه ، انما تتوقف في مجموعها على طبيعة هذه القوى العنصرية ، ومقدار تأثيرها شدة وضعفاً .

ففي عالمي النبات والحيوان تجد أن تباين الصور والألوان ، والتركيب والخصائص الظاهرة ، وعادات الحياة والمأهل ، وحركة الاطراف والاعضاء الاخرى ، وكذلك طرق التناسل والتربية ، جماعها يخضع لتغاير حالات البيئة أو المحيط الطبيعي ، بل لا بد من أن تكافئه مكافأة تامة . فالنباتات والحيوانات الارضية والمائية ، لكل منها وسائله الحيوية وطرقه الخاصة به . كما ان لكل منها الصورة الجسمية التي تكافئ مآهلها المختلفة وترافق محيطها . وكذلك النباتات والحيوانات التي تعيش تحت سطح الارض وقد ندعوها اصطلاحاً « النفقية » — Terrestrial — فانها تعرض لنا صوراً أخرى من الخصائص والصفات ، توافق مختلف الظروف التي تعيش مكتنفة بها .

ولا يتوقف وجود الحياة وحفظ النوع على حياة العضويات الفردية وحدها ، بل الحقيقة أن كل مظهر من مظاهر الحياة انما يتأثر بالمحيط الطبيعي الذي يكتنفها . فان فعل القوات الطبيعية المتشابك الاطراف ، ومحاولة كل كائن عضوي أن يستفيد من البيئة على مقتضى حاجاته وضرورات وجوده ، وتهذيب اعضائه من طريق تمثيل المواد التي يغتذي بها ، عامة هذه الاشياء

وكثير غيرها ؛ تنتج فى العضويات ضروباً خاصة من النماء ، وصوراً بعينها من النشوء ، ولاجرم أن حياة كل كائن عضوى وشخصيته انما تحكمها وتؤثر فيها هذه العوامل والنظامات الثابتة ، كما تؤثر فيها مجموعة الحالات الطبيعية التى تنشأ مع نشوء حاجات كل كائن لان ينمو ويتطور . وكذلك الحال اذا رجعت إلى تاريخ كل كائن من العضويات . فانك تجد أن ضروب التهذيب التى تقع في عالم الحياة والتى تخضع فى جل الحالات لتنافر العضويات من ناحية ، ثم تآلفها من ناحية أخرى ؛ كما تخضع لمختلف صور تلك القوى المتشابكة التى تخلقها معركة التناحر على البقاء الدائمة فى الكون ، لها أثرها ولها دورها الذى تلعبه على مسرح التاريخ العضوى .

فانك تجد أن كل كائن من العضويات لا يستطيع أن يحقق كمال شخصيته فى الوجود ، مستقلا بحياته استقلالا تاماً عن بقية العضويات . فان القوى العالمية فى مجموعها و فى تشابك حلقاتها وتخالط صلاتها ، هى المرجع الذى تعود اليه كل ظواهر الحياة فى كل كائن عضوى ، حتى انك لتجد أن نشوء كائن عضوي (والمقصود هنا النوع لا الفرد) وحريته ورقيه أو انحطاطه ، مرتبط كل الارتباط بنشوء غيره من العضويات وحريتها ورقيها او انحطاطها . وهذه الحقيقة الاساسية تنطبق تمام الانطباق على عالم الحياة الانسانية .

(١٩) الحياة الانسانية

تخضع الحياة الانسانية لما تخضع له بقية الكائنات العضوية . تخضع لتأثيرات القوى والمواد الطبيعية . كما أن هذه القوى والمواد الطبيعية تحكم فى حياة الانسان ، بل وتحكمها على قواعد ثابتة . فان نماء الانسان ونشوئه وحريته ، انما تتوقف على منتوج الصلات المتبادلة القائمة بين المؤثرات المختلفة التى يختص بها المحيط الاجتماعى والمحيط الطبيعى . فان تفاعل القوى الطبيعية بآثارها ، حسنة أو سيئة ، مفيدة أو ضارة ، هو الذى يخص كل كائن بشرى بصورة معينة ، كما يزوده بقوى عقلية وأدبية خاصة ؛ هى نصيبه من الطبيعة ، غير منازعة فيها ، ولا مرغمة عليها .

من هنا نجد أن تكوين الجماعات وتأسيس الحكومات، وتنظيم طرق التعليم والتربية وتقدم الآداب، واقامة قواعد الدين ومراسمه العملية، وعلى الجملة خلق كل المعاهد والنظامات، وكل مظاهر الحياة الانسانية، انما تأثر وتهذب بما فى المحيط من الفواعل الاجتماعية والطبيعية؛ وتتباين بتباين الظروف التى تترك أثرها الثابت فى البيئة. شأن الحياة الانسانية فى هذا، كشأن النباتات والعضويات الدنيا التى تتباين تراكيبها أكبر التباين وتختلف خصائصها أشد الاختلاف، حتى تحوز من المكافأة ما يوافق العوامل الكونية المختلفة. فان اختلاف ظواهر الحياة البشرية وخصائصها، باختلاف مجموعة المؤثرات التى تكتنفها، يتجلى ظاهراً بيناً فى تباين طرق الحياة ووسائلها. وبهذا يحتفظ الانسان ببقاء نوعه وشخصيته الانسانية، مصبة فى قوالب شتيتة، جماعها يكافئ الحالات المتباينة التى يتضمنها المحيط اجتماعياً وطبيعياً. وعلى هذا نرى أن الدين والحكومة والآداب، وبقية الظواهر التى تختص بها الحياة الانسانية، تكتسب بهذه الطريقة خصائص متباينة شكلا وروحا، لدى وقوعها تحت تأثير مختلف العوامل والظروف.

ان الباعث الوحيد الذى يضطر الانسان الى الخضوع للاعتبارات الاجتماعية والطبيعية، هو حاجته القصوى الى التوفيق بين ظواهر الحياة ووسائلها، وبين ضرورات التناحر على الحياة. فالحركات السياسية والدعوات الدينية، وتأسيس المستعمرات؛ وتشييد قواعد الانتاج الصناعى، وغير ذلك من ظواهر الحياة كلها، تخضع لعديد وافر من القوى الاجتماعية والطبيعية والنفسية التى تخضع لها الحياة الانسانية فى وجودها الكونى. وعلى هذا نقضى بان نشوء الامم وتقدمها وتحررها واستقلالها؛ أو استعبادها وانحلالها، لا يتوقف على حاجاتها التى يستعصى عليها الحصول عليها لتتقدم وتترقى لا غير، كما أنه لا يحدث بدياً بفعل خصائصها الحيوية وحدها، بل يرجع الى مجموعة عوامل كونية، لو استطعنا اكتناهها، استطعنا أن نخلق من التاريخ مقياساً علمياً، نقيس به على الوجه الاكمل مستقبل الامم والشعوب.

وعلى الجملة نقول بأن سعادة أية جماعة من الجماعات الانسانية أو شقائها، كما أن نماءها أو انحلالها، وتمتعها بحريتها أو حرمانها نعمة الحرية، واجمالا غاية

كل أمة من الامم ونهايتها ، تتأثر بتفاعل كل القوى الكونية التي تحيط بالحياة الانسانية . وهذه القوى تظهر فى أقوى مظاهرها من طريق الصلات الدولية؛ التى تقوم في كل عصر من العصور ، وتتركز هذه القوى من حول « مركز الجذب» الاجتماعى ، ونعنى به أقوى ميل دولى نحو شيء بعينه . من هنا نجد أننا اذا أردنا أن نتفهم حالات أية من الامم ، فانه من الضرورى نحيط بالحالات القائمة فى عالم الحياة الانسانية فى زمان معين ، وأن ندرس بتدقيق وأناة . آثار القوى الطبيعية والاجتماعية التي نشأت من تخالط العلاقات التى قامت بين أمم مختلفة من الناحية الاجتماعية والاقتصادية والعقلية والسياسية .

(٢٠) النتيجة

إن الحقائق التى يزودنا بها التاريخ بعد أن يتخذ من علم الحياة ـ البيولوجيا ـ دعامة يقوم عليها ، ستكون ولاشك من الفائدة لعالم الاجتماع بقدر مانجنى من فوائد العلوم الرياضية الآن فى تركيز قواعد المدنية . والحقيقة أنه ليس من الظواهر المختلفة التى تتجلى فى حياة السلالات البشرية والامم ، ماهو خاص بامة دون أمة ، أو قوم دون قوم . ذلك لان هذه الظواهر فى مجموعها نتاج التأثيرات المتبادلة القائمة بين الامم. لهذا نجد أن مثل الاخلاق القومية ؛ أنما تتشكل العلاقات الدائمة والصلاة القائمة بين الجماعات في عالمى الحياة والفكر .

ونجد من ناحية أخرى أن هذه العلاقات الدولية التى تتجلى فى الهجوم والدفاع ، والحرب والسلام ، تظهر فى مظاهر تختلف باختلاف الزمان والمكان. وبذلك ينشأ عنها قوميات متباينة منها تتكون السلالات البشرية ، ومنها تنشأ المثل الاخلاقية الشتيتة التى تختص بها كل سلالة من السلالات .

ونجد من جهة ثالثة أن مظاهر الحياة التى تنشأ عنها المثل القومية المختلفة والاخلاق الشعبية المتباينة ، فى تغاير مستمر من حيث الصورة والروح ، تبعاً لتغاير الحالات الطبيعية التي يختص بها المحيط أو البيئة .

وما دام فى الانسان قدرة على أن يكافىء بين حاجاته وأوجه نشاطه ، و بين الظروف المتغايرة التى يتكون منها ما نسميه المحيط من الناحيتين الطبيعية والاجتماعية ، فمجال الامل واسع فسيح فى تقدم الانسانية .